ألا بذكر اللَّه تطمئن القلوب

قال تعالى : { الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ألا بذكر اللَّه تطمئن القلوب } (الرعد : 28) المؤمنون الذين استجابوا لله والرسول واطمأنت قلوبهم بذكر الله.. { وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ } إشارة إلى أن من علامات أهل الإيمان، أنهم إذا ذكروا الله، أو ذكّروا به، اطمأنت قلوبهم، واشتملت عليهم السكينة، وغشيهم الأمن والسلام.. { ألا بذكر اللَّه تطمئن القلوب } توكيد لهذا الخبر الذي تضمنه قوله تعالى { وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ..} { الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ طُوبى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ} (الرعد : 29) هو توكيد لقوله تعالى: { أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} .. حيث أن ذكر الله يقيم الإنسان على الإيمان بالله، ويمسك به في مجال العمل الصالح، فيحيا حياة طيبة، يجد فيها الأمن والسكينة، فإذا كانت الآخرة، وجد ما عمل من صالحات حاضرا، فيسعد به ويهنأ. والطوبى: مؤنث أطيب، وهو الحسن الجميل من كل شيء.. والمآب: المرجع، والمراد به يوم القيامة..

ذكر الله.. واطمئنان القلوب به

{ ألا بذكر اللَّه تطمئن القلوب} ..ذكر الله هو تذكره، في استحضار جلاله، وعظمته، وقدرته، وكل ما له- سبحانه- من صفات الكمال والجلال.. فإذا ذكر الإنسان ربّه، واستحضر جلاله وعظمته، كان من هذا الذكر في ظلّ ظليل، من جلال الله وعظمته، وفي حمّى لا ينال من حياطته، ورعايته، وفي عزة تصغر أمامها عزة كل عزيز في هذه الدنيا، إذ كان معتصمه هو الله القويالعزيز ! {وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ} (آل عمران : 101) . فالذى يذكر الله وهو موقن به، طامع في رحمته، معتصم بجلاله، محتّم بحماه، لائذ بفضله، عائذ به، من هموم الدنيا، ومن ظلم الظالمين، وبغى الباغين، يجد ربا قريبا منه، سامعا دعاءه مستجيبا له، قال تعالى: { وَقالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} .. وقال: { فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ} (البقرة: 152).. وقال جل شأنه { وَإِذا سَأَلَكَ عِبادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذا دَعانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} (البقرة : 186) . وليس ذكر الله الذي تطمئن به القلوب، هو هذا الذكر الذي تردّده الألسنة ترديدا آليا، دون أن يكون منبعثا من القلب، دافئا بحرارة الإيمان، منطلقا بقوة اليقين- فمثل هذا الذكر لا يعدو أن يكون أصواتا مرددة، أشبه بالجثث الهامدة.. لا روح فيه، ولا معقول له.. ومن هنا تكون آفته، فلا يطمئن به قلب، ولا ينشرح به صدر.. أما الذكر الذي يقول فيه سبحانه وتعالى: { الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ} ثم يؤكده بقوله: { ألا بذكر اللَّه تطمئن القلوب } فهو الذكر الذي ينبعث عن إيمان، فتهتزّ له المشاعر، وتدفأ به الصدور، وتطمئن به القلوب.. ولهذا قدّم سبحانه الإيمان على الذكر.. حتى يكون للذكر أصل يرجع إليه، ومنطق ينطق منه، وهو الإيمان.. فإذا ذكر المؤمن بالله ربّه، غرّدت في نفسه بلابل البهجة، وزغردت في صدره عرائس الرضا، واستولت عليه حال من الشجا الممزوج بالنشوة، حتى ليكاد يكون كلّه عاطفة ترفّ بجناحي الصبابة والوجد، وتحلّق في سماوات عالية، مشرقة بنور الحق، معطرة بأريج الصفاء والطهر. ولا يكون الذكر لله ذكرا يثمر هذه الثمرة، التي يطمئن بها القلب، إلا إذا انبعث من قلب عارف بالله، مدرك لما ينبغى له سبحانه، من صفات الكمال والجلال، فذلك هو الذي يفيض على القلب خشية عند ذكر الله، وهو الذي يستثير مشاعر الولاء لله، والإخبات له، فتقشعر الجلود، وتدمع العيون.. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ } (الأنفال: 2) .. وقوله سبحانه: { وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ } (الحج: 34 – 35) وقوله جلّ شأنه { اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلى ذِكْرِ اللَّهِ} .. (الزمر: 23) فإذا ذكر المؤمن ربه، وقد تلبست به تلك الحال، واستولت عليه هذه المشاعر، قرب من الله، ودنا من مواقع رحمته، وأحسّ برد السكينة يغمر قلبه، ووجد ريح الأمن والطمأنينة تهبّ عليه، معطرة الأنفاس، زاكية الأرواح. إن الإنسان إذ يذكر حدثا من الأحداث، أو يستحضر صورة شخص من الأشخاص، له به علقة حب أو بعض، فإنه يجد في كيانه لهذا الذكر، ولذاك الاستحضار ما يهزّ كيانه، ويثير عواطفه، ويهيج أشجانه، أو يبعث مخاوفه.. وإلى هذا المعنى يشير الشاعر العربي في مدح أحد الخلفاء.. إذ يقول:

خليفة الله إن الجود أودية
أحلّك الله منها حيث تجتمع
إن أخلف الغيث لم تخلف مواطره
أو ضاق أمر ذكرناه فيتسع

وأيّا ما كان، فقد أثار هذا النداء بيا «ليلى» ثائرة المجنون، وحرك بلابل أشجانه، وعرته حال من الصبابة والوجد. كان وصفه لها في هذين البيتين، تصويرا لبعض ما استطاع أن يمسك به من مشاعره.. يقول المجنون:

وداع دعا إذ نحن بالخيف من منى
فهيّج أشجان الفؤاد وما يدرى
دعا باسم «ليلى» غيرها فكأنما
أهاج «بليلى» طائرا كان فى صدرى!

هذا بعض ما تثير ذكريات الأحداث، وتذكّر الأشخاص، في مجال الخير والشر، وفي مقام الحبّ والبغض.. فكيف يكون الحال عند من يذكر الله، ويستحضر جلاله، وعظمته، وقدرته، وعلمه، وحكمته، وكل ما ينبغي له- سبحانه- من صفات الكمال والجلال؟

اقرأ أيضا : *حياة القلوب في رحاب الذكر*

إن الذاكر لله على تلك الصفة يجد نفسه في حضرة مالك الملك، القائم على هذا الوجود، والمصرّف لكل موجود.. وإذا هو في هذا المقام ذاهل عن كل ما عدا الله، مستخفّ بكل ما سواه، موقن بأن ما هو فيه من خير أو شر، هو مما قضى الله به، وأنه لا يكشف الضرّ إلا هو سبحانه، ولا يسوق الخير إلا هو جل شأنه، فوعى قوله سبحانه: { وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } (الأنعام :17) وأخذ من ثمراتها الطيبة المباركة، زادا طيبا مباركا، فيه الشبع من كل جوع، والريّ من كلّ ظمأ، والشفاء من كل داء. فإذا ذكر الإنسان ربّه هذا الذكر الذي يدنيه من ربه، والذي يشهد منه ما يشهد من جلال الله، وعظمته، وقدرته، ارتفع عن هذا العالم الترابيّ، واستصغر كل شيء فيه، فلا يأسى على فائت، ولا يطير فرحا، ولا يأشر بطرا، بما يقع ليديه من حطام هذه الدنيا.. وهذا هو الاطمئنان الذي يسكن به القلب وتقرّ العين.. حيث لا حزن، ولا جزع، ولا خوف!! { ألا بذكر اللَّه تطمئن القلوب } .. ذلك أن الداء الذي يغتال أمن الناس، ويقضّ مضاجعهم- هو ما يدخل عليهم من هموم الدنيا، وما يشغلهم من توقعات الأمور فيها.. وإنه لا دواء لهذا الداء إلا باللّجأ إلى الله، والفزع إليه، وذلك بذكره، وتذكّر سلطانه المبسوط على هذا الوجود، وأمره القائم على كل موجود.. { أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ.. تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ } (الأعراف: 54). وفي قوله تعالى: { الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ} . وفي التعبير عن الإيمان بالفعل الماضي «آمنوا» وعن الاطمئنان بفعل المستقبل.. {تطمئن} – في هذا إشارة إلى أن الإيمان حال لا يتحول عنها المؤمن، وأنه لا يوصف بالإيمان إلا إذا كان مؤمنا.. على خلاف الاطمئنان، فإنه غير ملازم للمؤمن في كل حال، وإنما يقع الاطمئنان عند ذكّر الله، وكلما ذكر المؤمن ربه، حين تعرض له عوارض القلق والجزع. وهنا، نود أن نشير إلى أن ذكر الله الذي يمنح القلب اطمئنانا وأمنا، يحسن أن يكون منظورا فيه إلى صفة من صفات الله، المناسبة لتلك الحال العارضة، التي أزعجت الطمأنينة عن القلب، وأطارت السكينة والأمن من الجوانح..! فإذا كان الإنسان في مواجهة مرض، مثلا.. في نفسه، أو نفس من يحب. ذكر الله الرحمن الرحيم، وذكر قدرته على كشف هذا الضر، ورفع هذا السوء! وإذا كان في يد سلطان جائر، أو عدوّ متسلط قاهر، ذكر الله القويّ القاهر، الجبار المنتقم.. فأراه ذلك ضآلة هذا السلطان، وصغر شأن هذا العدو.. وهكذا يذكر للذاكر ربّه، فيرى في وجهه الكريم، الصفة التي يتجلّى بها عليه، فإذا هي السكن لجوارحه، والدواء لدائه، والطمأنينة لقلبه.. وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: { وَلِلَّهِ الْأَسْماءُ الْحُسْنى فَادْعُوهُ بِها } (الأعراف: 180) فبالاسم الذي ندعو الله به، يتجلّى به الله- سبحانه- علينا، فنرى في سنا وجهه الكريم، غيوث رحمته، ومواطر فضله ورضوانه. ولعله من المناسب أن نذكر هنا قول الله تعالى: { فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ} (البقرة :152) فالله سبحانه وتعالى لا ينسى، حتى يذكر فيذكر.. بل هو جل شأنه يذكرنا دائما، ذكرناه أو لم نذكره.. ولكن المراد بذكره لنا هنا إذا ذكرناه، هو أننا إذا ذكرناه وجدناه سبحانه حاضرا في قلوبنا وعقولنا.. وأننا إذا لم نذكره، فهو سبحانه حاضر كذلك، ولكن هذا الحضور لا نحسّ به، ولا ننأثر له. فإذا ذكر المؤمن ربّه، وجد ربه تجاهه.. وكأنه بتفلّته عن ذكر ربه قد بعد عن الله، فإذا ذكر ربّه، وأشرق عليه بنوره السنيّ البهيّ.. وفي الحديث القدسي: " من تقرب إليّ شبرا تقربت إليه ذراعا، ومن تقرب إليّ ذراعا تقربت إليه باعا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة" .. فذكر الله، وامتلاء القلب بهذا الذكر، يفيض على الذاكر أنوارا من جلال الله وبهائه، وإذا هو في حمّى عزيز لا ينال، وفي ضمان وثيق من أن يهون أو يذلّ لغير الله الواحد القهار.. وأسمى الذكر وأكمله، هو ذكر العارفين بالله، معرفة يطلعون منها على ما يملأ قلوبهم جلالا وخشية لله، حيث يشهدون من كمالات الله ما لا يشهده إلا المقربون، الذي رضى الله عنهم ورضوا عنه.. كما يقول سبحانه وتعالى { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمنُ وُدًّا } (سورة مريم : 96) .. فهذا الودّ إنما يناله أولئك الذين

والرجاء الذي يقوم على غير إيمان، ويستند إلى غير طاعة، هو مكر بالله، وخداع للنفس، وعدوان على سنن الحياة التي أقام الله عباده عليها، فجعل لكل عامل عمله، ولكل غارس ثمرة ما غرس!. وحسن أن يحسن العبد ظنه بربه، بل وأن يبالغ ما شاء في هذا الظن، ولكن شريطة أن يكون ذلك الظن نابعا من الإيمان بالله، ومستندا على ما يجد العبد من شواهد القرب من ربه.. فهنا يحق له أن يتمنى على ربه، وأن يدلّ دلال المحبوب مع محبوبه.. وفي الحديث الشريف: «ربّ أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبرّه» .. وفي الخبر الثابت أن البراء بن مالك (وهو أخو أنس بن مالك) كان ممن يقسم على الله فيبرّ الله قسمه، وكان المسلمون إذا اشتدت عليهم الحرب في قتال المشركين، يقولون: يا براء.. أقسم على ربك فيقسم على ربه فينتصرون!. والدعاء، هو من ذكر الله.. حيث يوجّه الداعي وجهه إلى الله، طالبا اللجأ إليه، والمدد من إحسانه وفضله.. يقول ابن قيم الجوزية في تفسيره المسمى: «التفسير القيم» : إن الدعاء هو ذكر للمدعو سبحانه، متضمن للطلب منه، والثناء عليه بأسمائه وأوصافه، فهو- أي الدعاء- ذكر وزيادة كما أن الذكر سمي دعاء لتضمنه الطلب، كما قال ﷺ: " أفضل الدعاء: الحمد لله"» فسمّى الحمد دعاء، وهو ثناء محض، لأن الحمد يتضمن الحب والثناء، والحب أعلى أنواع الطلب للمحبوب!. ثم يقول ابن القيم: «وتأمل كيف قال تعالى في آية الذكر: { وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً} (الأعراف : 205) وفي آية الدعاء: { ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً} (الأعراف:55) فذكر التضرع فيهما معا، وهو التذلل والتمسكن، والانكسار، وهو روح الذكر والدعاء.. وخص الذكر بالخفية لحاجة الذكر إلى الخوف، فإن الذكر يستلزم المحبة ويثمرها ولا بدّ، فمن أكثر من ذكر الله أثمر له ذلك محبته، والمحبة ما لم تقترن بالخوف، فإنها لا تنفع صاحبها، بل تضره، لأنها توجب الإدلال والانبساط وربما آلت بكثير من الجهال المغرورين إلى أنهم استغنوا بها عن الواجبات، وقالوا: المقصود من العبادات إنما هو عبادة القلب، وإقباله على الله ومحبته له، وتأليهه له.. فإذا حصل المقصود، فالاشتغال بالوسيلة باطل! «فإن من سلك هذا المسلك انسلخ عن الإسلام العام كانسلاخ الحبة عن قشرها.. وسبب هذا، عدم اقتران الخوف من الله، بحبه وإرادته (أي كونه مريدا له) . ولهذا قال بعض السلف: «من عبد الله بالحب وحده، فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده، فهو حروري، ومن عبده بالرجاء وحده، فهو مرجيء ، من عبده بالحب والخوف والرجاء، فهو مؤمن» .. وقد جمع الله تعالى هذه المقامات الثلاثة في قوله سبحانه: { أُولئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخافُونَ عَذابَهُ } (الإسراء: 57) فابتغاء الوسيلة هو محبته الداعية إلى التقرب إليه.. ثم ذكر بعدها الرجاء والخوف! .. { ألا بذكر اللَّه تطمئن القلوب } .. وبعد فإن ذكر الله بالقلب واللسان، هو خير زاد يتزود به الإنسان في رحلة الحياة، وخير رفيق يؤنسه في طريقه الموحش، حيث يجد في جوار الله الأنس، حين يستوحش الناس، ويجد الشبع والريّ إذا أجدب الناس، وكلب الزمان.. والله سبحانه وتعالى يقول: { فَمَنِ اتَّبَعَ هُدايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقى، وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى } (طه: 123-124) .